جـــوع الروحانى

لأستاذ جليل ينم عليه اسلوبه

أتحفنا الأستاذ المازنى منذ أيام بمقال ممتع « فى الحب » ، ثم أعقبه بمقال آخر تحدث فيه عن « الحب الأفلاطونى » و « الوفاء فى الحب »

فقال عن الحب إنه « ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع »

وقال عن الحب الأفلاطونى والوفاء : إنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ، وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها ، والتمتع بابتسامها ، ورشاقة وقفتها ، وحسن جلستها ؛ والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة »

وقال الأستاذ عن الوفاء : « أما الوفاء فأكرم به وأنعم ! ولكن أين فى دنيانا من يصبر على طعام واحد وفى وسعه ألا يفعل ؟ وانى أسأل القارئ وأعفيه من الجواب الملبى : أى رجل لم ينقض عهداً بالوفاء ؟ ... والمرأة كالرجل ، وشأنها كشأنه ، وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك ، ولست أدعو إلى شىء . وحاشاى أن أفعل ، ولكنى أصف واقعاً وأقرر حقاً لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة »

وأورد الأستاذ فى هذا المعنى بيتين من الشعر قالها قبل أن يهجر القريض — مأسوفا عليه من مقدرى فضله :

يا عقيدى طامن الله حشاك لن ترانى شاكياً وهى حبالك
أين من «طينتنا» أين الفكاك أنت انسان على فرط جمالك

* * *

وانى مع فرط احترامى لآراء الأستاذ واعجابى بها دائماً ، بل وعلى الرغم من اعجابى بأفكاره هذه التى عرضها فى مقاله الأخير ، أقول انى أحسست بأنى شخصياً قد سُببت . وكلما مر نظرى على قوله : « كذاب من يقول ، وكذابة من تدعى » انت وأحسست بالدم يصعد إلى رأسى شأن من يكون مقبلا عل والعياذ بالله ! وكلما أعدت البصر فى قوله انه « يقر حقاً لا فيه إلا منافق يريد أن يفعل كذا وينتحل كذا » ، أح كأنما تتحشرج فى حلقى عبارة : « اخنش يا رجل ! » « احفظ مقامك يا أخينا أنت وإلا . . . . » أو غير ذلك العبارات التى تسبق التماسك عادة بين الفريقين !

ذلك بأنى أنا أومن بالحب الأفلاطونى ، وأومن بال وإن كان الأستاذ قد قال فى معرض الكفر بهذين المذه « وأنا لا أدعو إلى شىء وحاشاى أن أفعل » ؛ فهأنذا بأنى أدعو إلى الايمان بالحب الأفلاطونى وبالوفاء ، وقص أن أفعل !

* * *

ولأبدأ أولا بأن أقول مع الأستاذ إن الحب اشتهاء هنا نحن متفقان . ولكن يبدو لى مع الأسف أن هذا هو ما بيننا من توافق ، فانه يقول بعد ذلك رأساً إن الحب تنبيه لل ليعمل على حفظ النوع . بينما أنا أتابع الحديث بأن الجوع أو وأن الأصل فيه جوع المعدة إلى الطعام ، وأن لكل حاسة حواس الجسم نوعاً من الجوع تكابده وتعمل على إشباعه ، الأذن مثلا تجوع وغذاؤها الموسيقى ؛ وتحس الجائع فى هذه باشتهاء مُلِح إلى استماع الألحان . والعين كذلك تجوع ولـ تجوع إلى الجمال ، وقد يبلغ من جوعها أن تضطرب أعص صاحبها وتفسد عليه شؤونه إلى أن يمن الله عليه بصورة جميلة لها عينه وتطمئن بها نفسه ، مع أنه لا يبغى من هذه الص أكثر من أن يجلو بها عينيه . وأجهزة الجسم جميعها تجو ولعل الحب الذى كتب عنه الأستاذ هو جوع الجهاز التناس وهو الجوع إلى المرأة وليس الجوع إلى الجمال ، قال : (الأعراض) البادية فى ذلك المقال (تشخص) هذه الحالة

وإذا كنت موفقاً فى التعبير فانى أعتقد أن هذا القول ما يكفى لفتح الطريق أمام الحب الأفلاطونى الذى سد الأ فى وجهه الأبواب ووقف من دونها يقول : « أين الكذاب ال يقول إن شيئاً يقوم وراء هذا الباب ؟ ! وأنت أيها المكابر يا تريد أن تنتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة ! يا منافق

يا بن ال . . .[1]» إلى آخر تلك الثورة التي لا سبيل لي مع الأسف إلى اتفاء أذاها غير أن أنشر هذه الكلمة بدون توقيع ، وأترك الفضل بعد ذلك في انتحالها لمن شاء وأمرى إلى الله !

* * *

إن الحب الأفلاطوني نوع من المغناطيسية الآدمية . وكل متعة الحب فيه أن يكون قريباً من حبيبه . لأن حبه هو حب الروح التي تعمل على حفظ « المزاج » لا حب اللحم والأجهزة السفلية التي تعمل على حفظ « النوع »

ولعل من أبرع الأمثلة على هذه الحالة قول قيس في بعض أشعاره :

تعلقت ليلى وهي ذات تمائم ولم يبد للنظار من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا صغيرين لم نكبر ولم تكبر البهم

فأنت ترى أن هذا الصبي المحب كان محباً قبل أن ينتبه فيه جهازه الجنسي ، ولم يكن يصلح مطلقاً للمحافظة على النوع ، بل إن ليلاه لم يكن قد تفتح في جسمها شيء من منبهات ذلك الجهاز . أفلست تسمعه إذ يقول : ولم يبد للنظار من ثديها حجم !

* * *

وأنا إذ أقول بوجود الحب الأفلاطوني لا أنكر حب (النوع) ولا أعيبه — وحاشاي أنا أيضاً أن أفعل — بل إني لأقول بإمكان اجتماعهما في نفس واحدة ، ولكن الذي ينبغي هنا أن أثبت وجود هذا الحب الأفلاطوني الروحاني البريء الذي أحسه أحياناً ، والذي يهمني جداً أن أطمئن غيري على وجوده ليتعلم كيف يحسه هو الآخر عند اللزوم . ذلك لأنه ضرورة من ضرورات الرجل المهذب الذي يريد أن يشعر أحياناً أنه ليس حيواناً دائماً ، وأنه قد يسمو في بعض الأوقات فوق اعتبارات هذه المادة المظلمة التي هي جسمه وأجهزته الدنيا

* * *

يروى عن (المهدي) أنه لما هرب من المأمون ذهب الى عمته فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك ، وكانت هذه غاية في الحسن فأحبها المهدي — أعني على طريقتي أنا لا على طريقة الأستاذ المازني — فكره أن يحدثها حديث (النوع) ، وأنه قد حصل لجسمه تنبيه ليعمل على بقاء السلالة البشرية في دولة أمير المؤمنين ، ولكنه تسامى بحبه الى السماء ، فبينما هي قائمة على رأسه ذات يوم تغنى بهذين البيتين :

يا غزالا لي اليه شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الضـ ـيف إحسان اليه

فلما انصرفت الجارية من عنده أخبرت سيدتها بما سمعت من مولاها ، فوهبتها له ؛ فلما رجعت الجارية اليه بعد ذلك أعاد غناءه ، فأكبت الجارية عليه ، فدفعها عن نفسه قائلا : كُفِّي ! ما أنا بخائن ! فقالت له إن سيدتي وهبتني لك ، فقبلها قائلا : أما الآن فنعم !

* * *

هذه هي كلمتي عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء . وأرى أن القول بأن (طينة) الانسان لا تتفق مع هذا الخلق العظيم كما يقرر الأستاذ في شعره إنما هو محاجَّة بالأساطير ، وتدليل بشيء لم يقل أحد إن له قوة الدليل . ونظيره أن يتقدم الشاهد الى المحكمة مثلا ليقول إنه سمع (بالاشاعة) أن فلانا قتل فلانا ، فان كان مثل هذا الشاهد يجد المحكمة التي تقيم لشهادته وزنا ، فسوف يجد حديث (طينتنا) من يستمع له !

* * *

وبعد . فما هي مهمة الكاتب الاجتماعي ؟ أهي أن يقرر الأمر الواقع أمام الأشهاد الذين يشهدونه ، فاذا فرغ من ذلك انصرف عنهم يقنع نفسه بأنه أدى رسالته ؟ أم هي أن يتسامى بقرائه الى المُثُل العليا التي تملأ أحلامه وتتجسم في تفكيره حتى ليعتقد فعلا بوجودها ولو لم تكن موجودة ؛ فيبشر لها في كتاباته ، ويصبح بذلك أهلا لحمل هذا اللقب الكبير .

لقد قال فولتير : « إن الله لو لم يكن موجوداً لوجب على الناس أن يوجدوه » ، والمعنى أن الناس لا تستقيم لهم حال إلا على أساس أن الله موجود ، وأنه من ورائهم محيط ، يجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته . وهذا ما يصح أن نقوله الآن عن الحب الأفلاطوني وعن الوفاء ، فان شيئاً من هذا إن لم يكن موجوداً لوجب علينا أن نوجده

* * *

(البقية في ذيل الصفحة التالية)

(١) الكلمة الأخيرة لم ترد طبعاً في مقال الأستاذ الفاضل ولكن سياق الكلام اقتضاها فاثبتناها